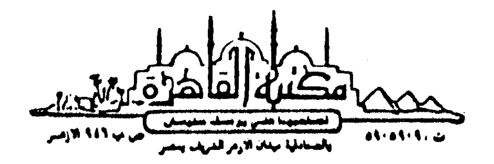
٢٠ قصة في أخبار الفتح الإسلامى

تأليف المفكر الإسلامى
الشيخ / بكر محمد إبراهيم

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الأول بلا ابتداء الآخر بلا انتهاء الظاهر فليس فوقه شئ وهو الباطن فليس دونه شئ، خلق الخلق وأحصاهم عددا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا. يعلم عدد قطرات الأمطار وعدد حبات الرمال وعدد أوراق الأشجار.

نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده . قال تعالى : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ وأصلى وأسلم على سيد ولد آدم وعلى آله وصحبه وسلم ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده وأن سيدنا محمداً عبده رسوله وصفيه وخليله .

وبعد ...

فهذه رسالة فى الفتوح والغزوات فى عهد الخليفة - الثانى - الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجازاه

خير الجزاء عن أمة محمد ﷺ. فهو الإمام العادل والمجاهد الصابر التقى الورع الذى لا يخشى فى الله لومة لائم جعل الله تعالى عهده وولايته فتحا للمسلمين ونصراً وكانت درته أهيب من السيوف وكانت تهابه الأكاسرة والقياصرة والملوك رضى الله عنه وعن الصحابة والتابعين لهم باحسان .

فتحت فى عهد هذا الخليفة الفاروق بلاد الفرس والروم واتسعت رقعة الإسلام وسار النصر فى ركابه ، وكان رضى الله عنه يوجه الجيوش وينصح القادة ويبدى الرأى السديد وينطق لسانه بالحكمة ، وكان مثار إعجاب العدو والصديق على السواء ، ولكن أعداء الله لم يهدأ لهم بال حتى اغتالوه بعد عشر سنين من حكمه المبارك فنال الشهادة غير مضيع ولا مفرط رضى الله عنه وأرضاه .

ولله الحكمة البالغة سبحانه وتعالى والله من وراء القصد .

المؤلـــف

موقعة حمص

سنة ٦٣٦ م

أهل الجزيرة يحرضون الروم على قتال المسلمين .

حمص بلد مشهور قديم كبير مسور وفى طرفه القبلى قلعة حصينة على تل عال وهى دمشق وحلب فى نصف الطريق أرسل أهل الجزيرة إلى ملك الروم وبعثوا إلى إرسال الجنود إلى الشام ووعدوه بالمعاونة فأجابهم إلى ذلك .

فلما سمع أبو عبيدة ذلك ضم إليه مسالحهم وعسكر بفناء مدينة حمص وأقبل خالد من مدينة قنسرين[١] حتى انضم إليهم هو وأمراء المسلمين وكان

---

(١) كانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً وهى كورة بالشام منها حلب وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم واسم حمص عند الروم.

رأى خالد أن يناجز الروم إلى مجئ المدد ورأى غير التحصن، فرفض أبو عبيدة رأى خالد وتحصن وخندق على حمص، وكتب إلى عمر بخروج الروم عليه، وكان عمر اتخذ فى كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين فكان بالكوفة ٤٠٠٠ فرس معدة للطوارئ.

فكتب إلى سعد أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به وتقدم إليهم فى الجد والحث وكتب إليه أيضاً أن سرح سهيل بن عدى إلى الجزيرة فى الجند وليأت الرقة[1] ،

فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وإن أهل قرقيسياء لهم سلف وسرح عبد الله

---

(١) الرقة أصله كل أرض إلى جنب واد ينبسط عليها الماء وجمعها رقاق بينها وبين حران ثلاثة أيام معدودة فى بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقى.

بن عتبان إلى نصيبين[١] فإن أهل قرقيسياء لهم السلف ثم لينفضا حران والرهاء وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وسرح عياضاً فإن كان قتالا فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد ممدين لأهل الشام وممن انصرف أيام انصراف أهل العراق ممدين لأهل القادسية وكان يرافد أبا عبيدة ، فمضى القعقاع فى أربعة آلاف من يومهم الذى أتاهم فيه الكتاب نحو حمص وخرج عياض وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض وتوجه كل أمير إلى الكوفة التى أمر عليها فاتى سهيل الرقة وخرج عمر من المدينة مغيثاً لأبى عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية .

ولما بلغ الجزيرة الذين أعانوا على أهل حمص خير الجنود الإسلامية تفرقوا إلى بلادهم وفارقوا الروم فلما

(١) نصبين مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وكان بها عقارب كثيرة .

فارقوهم استشار أبو عبيدة خالداً فى الخروج إلى الروم فأشار به فخرج إليهم فقاتلهم ففتح الله عليه وقدم القعقاع بن عمرو بعد الوقعة بثلاثة أيام فكتبوا إلى عمر بالفتح وبقدوم المدد عليهم والحكم فى ذلك فكتب إليهم أن أشركوهم فإنهم نفروا إليكم وانفراق لهم عدوكم ، وقال جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأنصار فلما فرغوا رجعوا.

فتح الجزيرة

سنة ١٧ هـ

سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر ، ودجلة والفرات يقبلان من بلاد الروم وينحطان متساومتين حتى يلتقيا قرب البصرة ثم يصبان فى البحر وهى صحيحة الهواء جيدة الريح والنماد واسعة الخيرات ، بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة ومن أمهات مدنها حران والرهاء

والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد ومافارتين والموصل وغير ذلك .

كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص إن الله قد فتح على المسلمين الشام والعراق فابعث من عندك جنداً إلى الجزيرة وأمر عليهم أحد الثلاثة خالد بن عرفطة أو هاشم بن عتبة أو عياض بن غنم ، فلما انتهى إلى سعد كتاب عمر ، قال ما أخر أمير المؤمنين عياض بن غنم آخر القوم إلا أنه له فيه هوى أن أوليه وأنا موليه فبعثه وبعث معه جيشاً وبعث أبا موسى الأشعرى وابنه عمر بن سعد وهو غلام حدث السن ليس له من الأمر شئ وعثمان بن أبى وقاص بن بشر الثقفى فخرج عياض إلى الجزيرة فنزل بجنده على الرُهاء[1] فصالحه أهلها وصالحت حران حين صالحت الرُهاء فصالحه أهلها على الجزية . ثم بعث أبا موسى الأشعرى إلى نصيبين ووجه عمر بن سعد إلى

(١) الرُهاء بالمد والقصر ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ.

رأس العين فى خيل ردءاً للمسلمين وسار بنفسه فى بقية الناس إلى دارا[١] فنزل عليها حتى افتتحها فافتتح أبو موسى نصيبين وأجرى المسلمون كل ما أخذوه من الجزيرة عنوة مجرى الذمة فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً فكانت تلك السهولة مهجنة عليهم وعلى من أقام فيهم من المسلمين وقال عياض بن غنم:

من مبلــغ الأقــوام أن جموعنــا
حوت الجـزيرة يــوم ذات زحــام
جمعوا الجزيرة والغياب فنفســوا
عمــن بحمــص غيابــة القــدام

(١) دارا بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين ذات بساتين ومياه جارية ومن أعمالها يجلب المحلب الذى تتطيب به الأعراب وعندها كان معسكر دارا بن دارا الملك ابن قباذ الملك لما لقى الاسكندر فقتله الاسكندر وتزوج ابنته وبنى هذه المدينة وسماها باسمه .

إن الأعــزة والأكــارم معشـــر

فضــوا الجزيــرة فراخ الهــام

غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهـوا

عن غـزو من يأوى بـلاد الشـــام

فتح إرمينية

إرمينية بكسر أوله ويفتح اسم لصقع عظيم واسع فى جهة الشمال والنسبة إليها أرمنى، قيل هى أربع أرمينيات الأولى بيلقان وقبلة وشروان وما انضم إليها عد منها، والثانية جُردان وصغدبيل وباب فيروز قُباد واللكز ، والثالثة البُسفُرجان ودبيل وسراج طير وبغروند والنُشوى، والرابعة وبها صفوان بن المعطل صاحب رسول الله وهو قرب حصن زياد .

وقد توجه عثمان بن أبى وقاص إلى أرمينية الرابعة فكان عندها شئ من قتال أصيب فيه صفوان بن المعطل

السُلمى شهيداً ثم صالح أهلها عثمان بن أبى وقاص على الجزية على كل أهل بيت دينار.

خروج عمر إلى الشام

سنة ١٧ هـ

خرج عمر من المدينة إلى الشام غازياً حتى إذا كان بسرغ(١) لقيه أمراء الجند فأخبروه أن الأرض سقيمة فرجع بالناس إلى المدينة ولقد كان بالشام طاعون فأخبروه به . وعن عبد الله بن عباس خرج غازيا وخرج معه المهاجرون والأنصار وأوعب الناس معه حتى إذا نزل بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة ، فأخبروه أن الأرض سقيمة فقال عمر اجمع إلىّ المهاجرين الأولين فجمعهم له فاستشارهم فاختلفوا عليه فمنهم القائل خرجت لوجه تريد

---

(١) سرغ وهو أول الحجاز وآخر الشام ، قال مالك بن أنس هى قرية بوادى تبوك وهى آخر عمل الحجاز الأول .

فيه الله وماعنده ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك .
ومنهم القائل إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى قال اجمع لى مهاجرة الأنصار فجمعتهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم قال اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش فجمعتهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء فقال لى عمر يا ابن عباس اصرخ فى الناس فقل إن أمير المؤمنين يقول لكم أنى مصبح على ظهر . فأصبحوا عليه فأصبح عمر على ظهر وأصبح الناس عليه فلما اجتمعوا عليه قال أيها الناس أنى راجع فارجعوا فقال له أبو عبيدة «أفراراً من قدر الله !» قال «نعم من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو أن رجلا هبط وادياً عدوتان إحدهما خصبة والأخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله؟ » قال «لو غيرك يقول هذا يا أبا

عبيدة!» ثم خلا به بناحية دون الناس فبينما الناس على ذلك إذا أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفا على الناس لم يشهدهم بالأمس .

فقال ماشأن الناس ؟ فأخبر الخبر فقال عندى من هذا علم . فقال عمر فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك ؟ قال سمعت رسول الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم إلا ذلك» فقال عمر فالله أحمد . انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم ، ولما رجع عمر رجع عمال الأجناد إلى أعمالهم وقع هذا الطاعون بالشام ومصر والعراق واستقر بالشام ومات فيه خلق كثير فى المحرم وصفر ولما خرج عمر كان الطاعون بالشام بالغاً أشده .

موقعة قنسرين

أرسل أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد إلى قنسرين[1] فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم وكانوا تحت قيادة ميناس فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه فلم يبق منهم واحد . وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم ، سار خالد حتى نزل قنسرين فتحصنوا منه فقال :« إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا» فتبدروا فى أمرهم وذكروا ما لقى أهل حمص فصالحوه على صلح حمص .

فتح انطاكية

أنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية هواؤها طيب وماؤها عذب وفواكهها كثيرة وبينها وبين

(١) كانت قنسيرين كرسي المملكة المنسوبة اليوم إلى حلب وكانت حلب من جملة أعمال قنسرين .

البحر نحو فرسخين وسار أبو عبيدة إلى أنطاكية وقد لحق بها خاق من أهل جند قنسرين فلما صار بمهروية على فرسخين من أنطاقية لقيه جمع للعدو ففضهم وألجأهم إلى المدينة فحاصرها ثم صالحه أهلها على الجزية والجلاء فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حالم ديناراً أو جريباً ثم نقضوا العهد وفتحت ثانيا .

موقعة مرج الروم

خرج أبو عبيدة بخالد بن الوليد من فحل إلى حمص وانصرف بمن أضيف إليهم من اليرموك فنزلوا جميعاً على ذى الكلاع وقد بلغ الخبر هرقل فبعث تيودرا البطريق حتى نزل بمرج دمشق وغربها فبدأ أبو عبيدة بمرج الروم وجمعهم هذا وقد هجم الشتاء عليهم والجروح فيهم فاشية فلما نزل على القوم بمرج الروم نازله شنس الرومى وكان أبو عبيدة بازائه وخالد بازاء تيودرا البطريق

واتى خالدا الخبر أن تيودرا قد رحل إلى دمشق فأجمع رأيه ورأى أبى عبيدة أن يتبعه خالد فاتبعه من ليلته فى جريدة وقد بلغ يزيد بن أبى سفيان الذى فعل فاستقبله فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم فقتلوا ولم يفلت منهم إلا الشريد وغنم المسلمون مغانم كثيرة وقسم ذلك يزيد على أصحاب خالد ثم انصرف يزيد إلى دمشق وخالد إلى أبى عبيدة ، وقتل أبو عبيدة شنس وامتلأ المرج من قتلاهم .

فتح قيسارية (١)

١٧ هـ - ٦٣٨ م

كتب عمر إلى معاوية : «أما بعد فانى قد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم واكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله الله ربنا ثقتنا ورجؤنا ومولانا . نعم

(١) بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينهما وبين طبرية ثلاثة أيام وكانت قديما من أمهات المدن .

المولى ونعم النصير» فسار معاوية فى جنده حتي نزل على أهل قيسارية فحاصرهم وكانوا كلما زاحفوه هزمهم وردهم إلى حصونهم وأخيرا خرجوا وقاتلوا قتال المستميت فبلغت قتلاهم ٨٠٫٠٠٠ فى المعركة وكلها فى هزيمتهم ١٠٠٫٠٠٠ وكتب معاوية إلى عمر بالفتح .

فتح بيسان ووقعة أجنادين

بيسان مدينة بالأردن بالغور الشامى وهى بين حوران وفلسطين وبها عين الفلوس وهى عين فيها ملوحة يسيرة ، وهى بلدة وبئة حارة أهلها سمر الألوان جعد الشعور لشدة الحر عندهم وإليها ينسب الخمر قالت ليلى الأخيلية فى توبة:

جزى الله خـــيراً والجــزاء بكــفة

فتى من عقيل ســاد غـير مكلــف

فتى كانت الدنيــا تهـون بأســرها

عليــه ولم ينفــك جــمٌ التصـــــرف

ينـــال علّيـــات الأمــــور بهونـــــــة

إذا هى أعيت كل خـرق مشــرّف

هو النوب أو أرى الضحالى شبتـه

بدر يافة من خمر بيســـان قرقـف

أما أجنادين فسهل مرمل واقع على جنوبى دمشق بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين .

لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص نزل عمرو وشرحبيل على بيسان فافتتحاها وصالحا أهل الأردن واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين وبيسان وسار عمرو وشرحبيل إلى الأرطبون ومن معه وهو بأجنادين واستخلف على الأردن أبا الأعور فنزل بالأرطبون ومعه الروم وكان الأرطبون هذا قائداً عظيما من دهاة الروم وكان وضع بالرملة جيشاً عظيما وبايلياء كذلك(١) فلما بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال : «رمينا أرطبون الروم

(١) ايلياء اسم مدينة بيت المقدس قيل معناه بيت الله .

بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج» يريد بأرطبون العرب عمرو بن العاص .

وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو وكان عمرو قد جعل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروف بن فلان العكي على قتال ايلياء فشغلوا من به عنه وجعل أيضاً أبا أيوب المالكي على من بالرملة من الروم فشغلهم عنه وتتابعت الأمداد من عند عمر إلى عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل بشيء لاكتشاف امره والوقوف على سره وسر جيشه.

(حيلة عمرو بن العاص)

لما ضاقت الحيل بعمرو بن العاص «أرطبون العرب» على حد قول الخليفة عمر بن الخطاب توصل إلى الدخول إلى الأرطبون بنفسه كأنه رسول ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد ، فقال

أرطبون فى نفسه والله إن هذا لعمرو أو أنه للذى يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأسيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله (باعتبار أنه جاسوس) ثم دعا أحد الحراس وساره بقتله، فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فإذا أمر بك فاقتله وفطن لذلك عمرو فقال فقد سمعت منى وسمعت منك فأما ماقلته فقد وقع منى موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالى لنكلفه ويشهدنا أموره فأرجه فآتيك بهم الآن فإن رأوا فى الذى عرضت مثل الذى أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير وإن لم يروه رددتهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلا فساره وقال اذهب إلى فلان فرده إلىّ ، فرجع إليه ، وقال لعمر انطلق فجئ بأصحابك . فخرج عمرو ونجا من الموت بفضل فطنته وحيلته ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم أرطبون بأنه خدعه ، فقال خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق فبلغت هذه القصة الخليفة فقال : «غلبه عمرو ، لله عمرو» وناهضه عمرو وقد عرف مأخذه وعاقبته والتقوا ولم يجد من ذلك بداً فالتقوا

بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم وانهزم أرطبون إلى إيلياء ونزل عمر وأجنادين وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المقدس لأرطبون فدخل إيلياء وأزاح عنه إلى عمرو. وفي هذه الوقعة يقول زياد بن حنظلة :

ونحـن تركـنا أرطبـــون مطـّردا
إلى المسجد الأقصى وفيه حسور
عشيـة أجنـــادين لمـا تتابعـوا
وقامت عليهـــم بالعــراء نســور
عطفنا له تحـت العجـاج بطعنة
لها نشـــج نأى الشهـيق غـــزير
فطمنابه الروم العريضـة بعـــده
عن الشام أدنى ماهـناك شطـير
تولت جمـوع الـروم تتبـع إثره
تكاد من الذعر الشـــديد تطـير

وعوير صرعى فى المكر كثيرة

وعاد إليه الفل وهو حسير

فتح بيت المقدس

وهو إيلياء

آخر سنة ١٥ هـ - آخر سنة ٦٣٧م

سير أبو عبيدة إلى بيت المقدس سبعة جيوش وعلى كل جيش قائد ضم إليه ٥٠٠٠ فارس . وعقد لكل قائد راية ، فكان جملة من سيره ٣٥٠٠٠ فارس وهذه أسماء القواد :

(١) خالد بن الوليد .

(٢) يزيد بن أبى سفيان .

(٣) شرحبيل بن حسنة .

(٤) المرقال بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص .

(٥) المسيب بن نجية الفزارى .

(٦) قيس بن هبيرة المرادى .

(٧) عروة بن مهلهل بن زيد الخيل .

وكانت فرسان شرحبيل من أهل اليمن وأمر أبو عبيدة المرقال أن ينزل الحصن وهو منعزل عن أصحابه .

سار الأمراء السبعة فى سبعة أيام فى كل يوم أمير وذلك كله ليرهب به العدو فبقى كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه . فكان أول من طلع عليهم بالراية خالد بن الوليد ، فلما أشرف عليهم كبر وكبر أصحابه فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا وتزعزعت قلوبهم وصعدوا أسوار بلدهم ، فلما نظروا إلى قلة المسلمين استحقروهم وظنوا أن ذلك جميع المسلمين فنزل خالد ومن معه مما يلى «باب اريحاء» وأقبل فى اليوم الثانى يزيد بن أبى سفيان وفى اليوم الثالث شرحبيل ابن حسنة وأقبل فى اليوم الرابع المرقال وأقبل فى اليوم

الخامس المسيب بن نجية وأقبل فى اليوم السادس قيس بن هبيرة وأقبل فى اليوم السابع مهلهل بن زيد فنزل مما يلى طريق الرملة .

وأقام العسكر على بيت المقدس ثلاثة أيام لا يبارزهم أحد ولا ينظرون رسولا يأتى إليهم ولا يكلمهم أحد من أهلها إلا أنهم قد حصنوا أسوارهم بالمنجنيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخر . قال المسيب بن نجية مانزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس ، وما نزلنا بقوم إلا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس ، نزلنا بازائهم ثلاثة أيام فلم يكلمنا أحد ولا ينطقون غير أن حارسهم شديد وعدتهم كاملة . فلما كان اليوم الرابع قال رجل من البادية لشرحبيل بن حسنة أيها الأمير كأن هؤلاء القوم صم فلا يسمعون أو بكم فلا ينطقون أو عمى فلا يبصرون ازحفوا بنا إليهم ، فلما كان اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان أول

من ركب من المسلمين من الأمراطسؤال أهل بيت المقدس يزيد بن أبى سفيان فشهر سلاحه وجعل يدنو من سورهم وقد أخذ معه ترجمانا يبلغه عنهم ما يقولون فوقف بازاء سورهم بحيث يسمعون خطابه وهم صامتون . فقال لترجمانه : قل لهم أمير العرب يقول لكم ماذا تقولون فى إجابة الدعوة إلى الإسلام والحق وكلمة الإخلاص وهى كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ما سلف من ذنوبكم وتحقنون بها دماءكم وإن أبيتم ولم تجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو أعظم منكم عدة وأشد منكم .

وإن أبيتم هاتين الحالتين حل بكم البوار وكان مصيركم إلى النار ، فتقدم الترجمان إليهم وقال لهم من المخاطب عنكم ؟ فكلمه قس من القساوسة عليه مدارع الشعر وقال أنا المخاطب عنهم ماذا تريد؟ فقال الترجمان: إن هذا الأمير يقول كذا وكذا ويدعوكم إلى إحدى هذه الخصال الثلاث ، إما الدخول فى الإسلام أو أداء الجزية،

وإما السيف . فبلغ القس من وراء ما قال الترجمان فقالوا لا نرجع عن دين العز والقبول، وإن قتلنا أهون علينا من ذلك، فبلغ الترجمان ذلك لزيد فمشى إلى الأمراء وأخبرهم بجواب القوم. قال لهم ما انتظاركم بهم ؟ فقالوا إن الأمير أبا عبيدة أمرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم ولكن نكتب إلى أمين الأمة فإن أمرنا بالزحف زحفنا ، فكتب يزيد بن أبى سفيان إلى أبى عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم فما الذى تأمر به فكتب إليهم أبو عبيدة يأمر بالزحف وأنه واصل فى أثر الكتاب ، فلما وقف المسلمون على كتاب أبى عبيدة فرحوا واستبشروا وباتوا ينتظرون الصباح وكل أمير يريد أن يفتح على يديه فيتمتع بالصلاة فيه والنظر إلى آثار الأنبياء،

فلما أضاء الفجر أذن وصلت الناس صلاة الفجر فقرأ يزيد ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا﴾(١) الآية، فيقال إن الأمراء أجرى الله

(١) سورة المائدة .

على ألسنتهم فى تلك الصلاة أن قرأوا هذه الآية كأنهم على ميعاد واحد فلما فرغوا من الصلاة نادوا النفير النفير، يا خيل الله اركبى. فأول من برز للقتال حِمْيَر ورجال اليمن . وبرز المسلمون للحرب كأنهم أسود ضارية ونظر إليهم أهل بيت المقدس وقد انشرحوا لقتالهم فنشطهم ورشقوا المسلمين بالنشب فكانت كالجراد فجعل المسلمون يتلقونها بدرقهم فلم تزل الحرب بينهم من الغد إلى الغروب يقاتلون قتالا شديداً ولم يظهروا فزعاً ولا رعباً ولم يطمعوهم فى بلدهم . فلما غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون ما فرض الله عليهم وأخذوا فى إصلاح شأنهم وعشائهم فلما فرغوا من ذلك أوقدوا النيران واستكثروا منها لأن الحطب عندهم كثير. فبقى قوم يصلون وقوم يقرأون وقوم يتضرعون وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل فلما كان الغد بادر المسلمون إليهم وذكروا الله كثيراً وأثنوا عليه وصلوا على رسول الله ﷺ وتقدمت رماة النبل واقبلوا يرمون ويذكرون الله وهم

يضجون إلى الله بالدعاء ولم يزل المسلمون على قتال عدة أيام فلما كان اليوم الحادى عشر أشرفت عليهم راية أبى عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها فرسان المسلمين وقد أحدقوا بأبى عبيدة وجاءت النسوان والأموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فأجابتهم القبائل ووقع الرعب فى قلوب أهل بيت المقدس ثم جاء البطرق(١) ليرى الأمير القادم وصعد على السور من الجهة التى فيها أبو عبيدة فناداهم رجل ممن كان يمشى بين يدى البطرق فقال : يا معشر المسلمين كفوا عن القتال نستخبرهم ونسألكم فامسك الناس عن القتال فناداهم رجل من الروم بلسان عربى فصيح : اعلموا أن صفة الرجل الذى يفتح

(١) اسم هذا البطرق صفرونيوس ولد بدمشق وبقى راهباً مدة طويلة ببيت المقدس ثم رحل إلى الإسكندرية ثم طرده منها الفرس واستقر أخيراً بفلسطين وفى سنة ٦٣٤م ، تعين بطريقاً لبيت المقدس سنة ٦٣٧م ، صالح المسلمين ولم تطل حياته بع ذلك وقد كان كاتباً وشاعراً وله عدة مؤلفات على القديسين والشهداء وخطط مصر .

بلدنا هذا وجميع الأرض عندنا فان كان هو أميركم فلا نقاتلكم بل نسلم إليكم وإن لم يكن إياه فلا نسلم إليكم أبداً.

فلما سمع المسلمون أقبل نفر منهم إلى أبى عبيدة وحدثوه بما سمعوه . فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذاهم فنظر البطرق إليه قال ليس هو هذا الرجل فابشروا وقاتلوا عن بلدكم ودينكم وحريمكم ، فاقبلوا يقاتلون كما كانوا وعاد البطرق من غير أن يخاطب أبا عبيدة بكلمة واحدة وشد المسلمون عليهم الحرب وكان نزول المسلمين على بيت المقدس فى الشتاء فظن الروم أن المسلمين لايقدرون عليهم فى ذلك الوقت ونشط عرب اليمن يرمون الروم بالنبل ويصيبونهم فيتهافتون من سورهم كالغنم ، فلما رأوا ما صنع بهم النبل احترزوا منه وستروا السور بالحجف والجلود .

ولم يزل أبو عبيدة ينازل بيت المقدس أربعة أشهر كاملة وما من يوم إلا ويقالتهم قتالا شديداً والمسلمون

صابرون على البرد والثلج والمطر . فلما نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار قصدوا البطرق وشرحوا له حالهم وإن ملكهم شغل عنهم بنفسه ولم يرسل إليهم المدد وطلبوا إليه أن يخاطب العرب وينظر ما يريدون فصعد معهم على السور واشرف على المكان الذى فيه أبو عبيدة فنادى منهم رجل بلسان فصيح : يا معشر العرب إن عمدة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد أقبل يخاطبكم فليدن من أميركم فاخبروا أبا عبيدة بمقالهم فقال والله إنى لأجيبه حيث دعانى ثم قام أبو عبيدة وجماعة من الأمراء والصحابة ومعه ترجمان ، فلما وقف بازائه ، قال لهم الترجمان ما الذى تريدون منا فى هذه البلدة المقدسة ومن قصدها يوشك أن يغضب الله عليه ويهلكه ، فأخبره الترجمان بذلك فقال قل لهم نعم إنها بلدة شريفة ومنها اسرى بنبينا إلى السماء ودنا من ربه كقاب قوسين أو أدنى وإنها معدن الأنبياء وقبورهم فيها ونحن أحق منكم بها ولا نزال عليها أو يملكنا الله إياها كما ملكنا غيرها ،

قال البطرق فما الذى تريدون منا ؟ قال أبو عبيدة : خصلة من ثلاث أولها أن تقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فإن أجبتم إلى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا . قال البطرق : إنها كلمة عظيمة ونحن قائلوها إلا أن نبيكم محمداً ما نقول أنه رسول إلخ ، ثم قال هذه خصلة لا نجيبكم إليها ، فما الخصلة الثانية ؟ فقال أبو عبيدة تصالحوننا عن بلدكم أو تؤدون الجزية إلينا عن يد وأنت صاغرون كما أداها غيركم من أهل الشام ، قال البطرق هذه الخصلة أعظم علينا من الأولى وما كنا بالذى يدخل الذل والصغار أبداً ، فقال أبو عبيدة ما نزال نقاتلكم حتى يظفرنا الله بكم . وحدثت محاورة بين الرجلين ثم قال البطرق إننا نجد فى كتبنا وما قرأناه من علمنا أنه يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يعرف بالفارق وهو رجل شديد لا تأخذه فى الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك تبسم ضاحكا وقال فتحنا البلد ورب

الكعبة ، ثم أقبل عليه وقال له إذا رأيت الرجل تعرفه ؟ قال نعم . وكيف لا أعرفه وصفته عندى وعدد سنينه وأيامه ! قال أبو عبيدة هو والله خليفتنا وصاحب نبينا ، فقال البطرق إن كان الأمر كما ذكرت فقد علمت صدق قولنا فاحقن الدماء وابعث إلى صاحبك يأت فإذا رأيناه وتبيناه وعرفنا صفته ونعته فتحنا له البلد من غيرهم ولا نكد وأعطينا الجزية ، فقال أبو عبيدة فإنى أبعث إليه بأن يقدم علينا . أفتحبون القتال أم نكف عنكم ؟ فقال البطرق : معاشر العرب ألا تدعون بغيكم . أنخبركم بأننا قد صدقناكم فى الكلام طلبا لحقن الدماء وأنتم تأبون إلا القتال قال أبو عبيدة : نعم لأن ذلك أشهى إلينا من الحياة نرجو به العفو والغفران من ربنا ، فأمر أبو عبيدة بالكف عنهم وانصرف البطرق وكتب أبو عبيدة إلى عمر كتابا قال له فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبى عبيدة عامر بن

الجراح ، أما بعد : السلام عليك فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ ، واعلم يا أمير المؤمنين إنا منازلون لأهل مدينة إيلياء نقاتلهم أربعة أشهر كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا ولقد لقى المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والأمطار إلا أنهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم . فلما كان اليوم الذى كتبت إليك الكتاب فيه أشرف علينا بطركهم الذى يعظمونه وقال إنهم يجدون فى كتبهم أنه لا يفتح بلدهم إلا صاحب نبينا واسمه عمر وأنه يعرف صفته ونعته وهو عندهم فى كتبهم وقد سألنا حقن الدماء . فسر إلينا بنفسك وانجدنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك» ثم أنه طوى الكتاب وختمه وأعطاه لميسرة بن مسروق العبسى ليوصله إلى عمر فلما تسلم الكتاب عمر استشار أصحابه فكان رأى عثمان ابن عفان استمرار القتال وعدم ذهاب عمر .

وأشار عليه على بن أبى طالب بالذهاب فأخذ بمشورة على وأمر الناس بأخذ الأهبة للمسير معه

والاستعداد واتى عمر المسجد فصلى فيه أربع ركعات ثم قام إلى قبر رسول الله ﷺ فسلم عليه وعلى أبى بكر رضى الله عنه واستخلف على المدينة على بن أبى طالب وخرج من المدينة وأهلها يشيعونه ويودعونه وخرج على بعير له أحمر وعليه غرارتان فى إحداهما سويق وفى الأخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد وخرج معه جماعة من الصحابة وسار نحو بيت المقدس فكان إذا نزل منزلا لا يبرح منه حتى يصلى الصبح فإذا انفتل من الصلاة أقبل على المسلمين وقال : «الحمد لله الذى أعزنا بالاسلام واكرمنا بالايمان وخصنا بنبيه عليه الصلاة والسلام وهدانا من الضلالة وجمعنا بعد الشتات على كلمة التقوى وألف بين قلوبنا ونصرنا على عدونا ومكن لنا فى بلاده وجعلنا أخواناً متحابين فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة السابغة والمنن الظاهرة فإن الله يزيد المستزيدين الراغبين فيما لديه ويتم نعمته على الشاكرين».

خطبة عمر فى الجيش

ثم خطب عمر فقال : «الحمد لله المجيد القوى الشديد الفعال لما يريد . إن الله تعالى قد أكرمنا بالاسلام وهدانا بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام وازاح عنا الضلالة وجمعنا بعد الفرقة وألف بين قلوبنا من بعد البغضاء فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا منه المزيد. فقد قال الله تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾ ثم قرأ ﴿من يهد الله المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا﴾ أما بعد : فإنى أوصيكم بتقوى الله عز وجل الذى يبقى ويفنى كل شئ سواه . الذى بطاعته ينفع أولياء وبمعصيته يفنى أعداءه ، أيها الناس أدوا زكاة أموالكم طيبة بها قلوبكم وانفسكم لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكوراً . افهموا ما توعظون به فإن الكيس من احرز دينه وإن السعيد من اتعظ بغيره ، إلا أن شر الأمور مبتدعاتها وعليكم بالسنة سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم فالزموها فإن الاقتصاد فى السنة

خير من الاجتهاد فى البدعة، والزموا القرآن فإن فيه الشفاء والثواب أيها الناس إنه قد قام فينا رسولُ الله ﷺ كقيامى فيكم وقال ألزموا أصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد ويحلف من لم يحلف . فمن أراد بحبوحة الجنة فليزم الجماعة . وتعوذوا من الشيطان ولا يخلون أحد منكم بامرأة فانهن حبائل الشيطان ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن والصلاة الصلاة».

تواضع عمر وتقشفه

ولما هم بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم (جلد) قال له المسلمون لو ركبت بدلا بعيرك جواداً ولبست ثياباً بيضاً، ففعل، قال الزبير أحسب أنها كانت من ثياب مصر تساوى خمسة عشر درهما وطرح على عاتقه منديلا من كتان ليس جديداً ولا بالخلق دفعه إليه أبو عبيدة وقدم إليه

برنون أشهب من براذين الروم . فلما صار عمر على ظهره جعل البرنون يهملج به فلما نظر عمر إلى البرنون وفعاله نزل عنه مسرعا وقال أقيلوا عثرتى أقال الله عثرتكم يوم القيامة فقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل قلبى من العجب والكبر وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من الكبر» ولقد كاد أن يهلكنى ثوبكم الأبيض وبرنونكم المهملج ثم أنه نزع ماكان عليه وعاد إلى لبس مرقعته ثم سار عمر يريد العقبة ليصعد منها إلى بيت المقدس فلقيه قوم من المسلمين وعليهم الديباج مما أخذوه من اليرموك فأمر عمر أن يحثوا التراب فى وجوههم وأن تمزق عليهم ولم يزل على ذلك حتى أشرف على بيت المقدس، فلما نظر إليها قال : «الله أكبر. اللهم افتح لنا فتحاً يسيراً واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيراً». ثم سار واستقبلته العشائر والقبائل وأصحاب العقود حتى نزل بالموضع الذى كان فيه أبو عبيدة وضرب له خيمة من الشعر وجلس فيها هناك على التراب ثم قام يصلى أربع ركعات.

خروج عمر إلى البطرق

علت للمسلمين ضجة عظيمة سمعها أهل بيت المقدس فسألهم البطرق أن ينظروا ما شأنهم فقيل لهم إن أمير المؤمنين قد قدم فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر ، قال لأبى عبيدة يا عامر تقدم إلى القوم واعلمهم أنى قد أتيت فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال يا أهل هذه البلدة إن صاحبنا أمير المؤمنين قد ورد فما تصنعون فيما قلتم ؟ فخرج البطرق من كنيسته فى محفل رهيب وصعد على السور وأشرف على أبى عبيدة فقال له أبو عبيدة هذا أمير المؤمنين عمر وليس عليه أمير قد أتى فطلب إليه أن يراه فهم عمر بالقيام فقال له أصحابه يا أمير المؤمنين أتخرج إليه منفرداً وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وإنا نخشى عليك منهم غدراً أو مكراً فينالون منك فقال عمر : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

ثم أمر ببعيره فقدم إليه فاستوى فى ركوبه عليه وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبى عبيدة وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بازائه فلما نظر إليه البطرق عرفه وقال لأهل بيت المقدس اعقدوا معه الأمان والذمة هذا والله صاحب محمد بن عبد الله ففتحوا الباب وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة ، فلما نظر إليهم عمر على تلك الحالة تواضع لله وخر ساجداً على قتب بعيره ثم نزل إليهم وقال ارجعوا إلى بلادكم ولكم الذمة والعهد إذا سألتمونا وأقررتم بالجزية ، فرجع القوم إلى بلدهم ولم يغلقوا الأبواب ورجع عمر إلى عسكره فبات ليلة .

دخول عمر بيت المقدس

فلما كان الغد قام عمر فدخل بيت المقدس بلا خوف ولا حذر وكان دخوله يوم الاثنين وأقام بها إلى يوم

الجمعة وخط بها محراباً من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة ولم يلمس المسلمون شيئاً من متاعهم وأموالهم وأقام عمر ببيت المقدس عشرة أيام وارتحل بعد أن كتب لأهله عهداً وأقرهم فى بلدهم على الجزية وسار بمن معه فى العساكر إلى الجابية فأقام بها ودوّن الدواوين وأخذ الخمس الذى لله مما أفاء الله على المسلمين ثم قسم الشام قسمين فأعطى أبا عبيدة من حوران إلى حلب وما يليها وامره بالمسير إلى حلب وأن يقاتل أهلها إلى أن يفتحها الله على يديه وأعطى أرض فلسطين وأرض القدس والساحل ليزيد بن أبى سفيان وجعل أبا عبيدة واليا عليه(١).

عهد أهل بيت المقدس

هذا نص عهد أهل بيت المقدس الذى أعطاه لهم

---

(١) فتح الشام للواقدى .

عمر بن الخطاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود على أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم[1] واللصوت[2] فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى

---

(١) كان عدد من بيت المقدس من الروم عند فتحها ١٢٠٠٠ وعدد السكان الأصليين ٥٠٠٠٠.

(٢) اللصوص .

ببيعهم[١] وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ماعلى أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فلا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشر».

وأما سائر كتبهم فعلى كتاب لدّ [٢] وهذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم

(١) كنائسهم .

(٢) لد بالضم والتشديد قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين

لكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيزها ولا مللها ولا من صلبهم ولا من أموالهم لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل مدائن الشام وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره».

جاء فى المقريزى أن عمر بن الخطاب لما فتح مدينة القدس كتب للنصارى أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وإنه جلس فى وسط صحن كنيسة القمامة فلما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده ثم جلس وقال للبطرك لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا هنا صلى عمر وكتب كتاباً يتضمن أنه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة إلا واحد واحد ولا يجتمع المسلمون بها للصلاة ولا يؤذنون عليها وأنه أشار عليه البطرك باتخاذ

موضع الصخرة مسجداً وكان فوقها تراب كثير فتناول عمر رضى الله عنه من التراب فى ثوبه فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق شئ وعمَّر المسجد الأقصى أمام الصخرة .

ثم أن عمر رضى الله عنه أتى بيت لحم وصلى فى كنيسة عند الخشبة التى ولد فيها المسيح وكتب سجلاً بأيدى النصارى أن لا يصلى فى هذا الموضع أحد من المسلمين إلا رجل بعد رجل ولا يجتمعوا فيه للصلاة ولا يؤذنوا عليه .

إن العهد الذى أخذه عمر على أهل الشام كان فى غاية الاعتدال فلا قسوة ولا ظلم ولا اضطهاد ولا تعصب للدين فقد أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنع هدم الكنائس واتخاذها سكناً ومنحهم حرية الاقامة وكان بيت المقدس محترما فى نظر المسلمين لا لأنه مهد اليهودية والنصرانية بل لأنه كان قبلة الإسلام الأولى ولأن

رسول الله ﷺ قد أسرى به إلى المسجد الأقصى ومنه عرج إلى السموات ، ولم تطل إقامة عمر بالقدس بل عاد إلى المدينة بعد فراغه من الصلح وفر أرطبون قائد الجيوش الرومانية إلى الأسكندرية .

وكانت مقاومة الروم للعرب كانت ضعيفة فقد كان عرب الشام يميلون إلى الفاتحين لما بينهما من تجانس ولما لا قوه من اضطهاد الروم ولما شاهدوا من عدل المسلمين ولذلك لم يقاوموا فتح العرب بل قابلوه بفتور وكانوا على الحياد تقريباً ثم أن السكان أنفسهم دب فيهم الضعف بسبب انغماسهم فى اللذات وسلوكهم سبيل الترف والتنعيم وبالطبع من كان هذا شأنه لا يقاتل بحماسة الجيوش الإسلامية الذين لا يرهبون المنية بل يلاقونها بصدور رحبة وهناك سبب غير هذا كله وهو عجز الامبراطورية الرومانية وضعفها فإنها كانت قد فقدت القوة اللازمة لدفع غزو العرب ، أما هرقل فإنه فر إلى القسطنطينية.

فتح مدينة حلب

سنة ١٦ هـ - ٦٣٨ م

حلب واسمها القديم خاليبون ثم بيريا ، هى مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء وهى قصبة جند قنسرين.

لما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغدروا فأرسل إليها جماعة وسار حتى وصل إلى ظاهر حلب وهو قريب منها فجمع أصنافاً من العرب وصالحهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك وأتى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهرى وتحصن أهلها وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وقيل أن أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحداً لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاقية وأرسلوا فى الصلح ولما تم رجعوا إليها وفى فتوح الشام للواقدى أن أهل حلب قالوا لأبى

عبيدة نعطى نصف ما أعطى أهل قنسرين فقال أبو عبيدة قد قبلت منكم ذلك ..... إلخ.

أما قلعتها فقد حاصرها المسلمون أربعة أشهر وقيل خمسة وقتل بطريقها جماعة من المسلمين وكتب عمر إلى أبى عبيدة يسأله عن سبب ابطاء الخبر فكتب أبو عبيدة جواب الكتاب فقال :

«بسم الله الرحمن الرحيم . إلى أبى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله بالشام أبى عبيدة . سلام عليك وإنى أحمد الله تعالى واصلى على نبيه . وبعد يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى له الحمد قد فتح على أيدينا قنسرين وشننا الغارة على العواصم وقد فتح الله علينا حلب صلحا وقد عصت علينا قلعتها وبها خلق كثير مع بطريقها وقد كادنا مراراً وأنه قتل منا رجالا ورزقهم الله الشهادة على يديه والله تعالى من ورائه بالمرصاد وقد أردنا الحيلة عليه فلم نقدر واردت الرحيل عنه وعن محاصرته إلى البلاد بين حلب وأنطاقية وأنا منتظر جوابك

والسلام عليك وعلى جميع المسلمين» وبعث الكتاب مع عبد الله بن قرط وجعدة بن جبير فوصلا المدينة ودخلا المسجد على عمر ودفعا له الكتاب فلما قرأه استبشر وقرأه على المسلمين وكتب إلى أبى عبيدة كتابا هذا نصه :

«أما بعد فقد ورد عليَّ كتابك مع رسلك فسرنى ما سمعت من الفتح والنصر على أعدائكم ومن قتل من الشهداء . وأما ما ذكرته من انصرافك إلى البلاد التى بين حلب وأنطاقية وتترك القلعة ومن فيها ، فهذا رأى غير صواب . تترك رجلا قد دنوت من واره وملكت مدينته ثم ترحل فيبلغ ذلك إلى جميع النواحى أنك لم تقدر عليه ولم تصل إليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترئ عليك أجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع إليه الجواسيس وتكاتب ملوكها فى أمرك . فاياك أن تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم إليك إن شاء الله تعالى أو يحكم الله وهو خير الحاكمين ، بث الخيل فى السهل والوعر والضيق والسعة وأكناف الجبال والأدوية وشن

الغارات في حدود الغارات ومن صالحكم منهم فاقبل صلحة ومن سالمك فسالمه . والله خليفتي عليك وعلى المسلمين وقد أنفذ كتابي هذا مع عصبة من حضرموت وغيرهم وأهل مشايخ اليمن ممن وهب نفسه لله تعالى ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال فرسان ورجال . والمدد يأتيك متواتراً إن شاء الله تعالى والسلام» وختم الكتاب وسلمه لعبد الله بن قرط وجعدة . ثم وصل المدد إلى أبي عبيدة وكان معهم مولى من موالي بن طريف من ملوك كندة يقال له دامس ويكنى بأبي الأهوال، مشهور باسمه وكنيته وكان أسود كثير السواد مفرطاً في الطول فارساً شجاعاً شاع ذكره في بلاد كندة ، فلما رأى الحصن ومناعته فكر طويلا واحتال فتوصل أخيراً إلى تسلقه مع رجال من المسلمين ثم فتح بابين من أبواب الحصن بعد أن قتل حراسهما وكانوا نائمين وعند ذلك دخل المسلمون وقاتلوا الروم قتالا شديداً ودخل خالد بن الوليد ومعه جيش الزحف ودخل ضرار وأمثاله، فلما رأى

الروم ذلك وعلموا أنهم لا طاقة لهم بما وقع بهم ، ألقوا السلاح ونادوا الغوث ! الغوث ! وكفوا أنفسهم عن القتال، فكفت المسلمون أيديهم عنهم ، فبينما هم كذلك إذ أقبل أبو عبيدة ومعه عساكر الإسلام فأخبروه أن الروم يطلبون الأمان وأن المسلمين قد رفعوا عنهم القتل إلى أن تأتى وترى فيهم رأيك فعرض عليهم الإسلام فأسلم جماعة من ساداتهم فرد عليهم أموالهم وأهاليهم واستبقى منهم الفلاحين وعفا عنهم من القتل والأسر وأخذ عليهم العهود ألا يكونوا إلا مثل أهل الصلح والجزية وأخرجهم من العقلة .

ثم أخرج المسلمون من الذهب والأوانى مالا يقع عليه عدد فاخرج منه الخمس وقسم الباقى على المسلمين.

فتح عزاز

عزاز بليدة فيها قلعة وهى شمال حلب بينهما يوم طيبة الهواء قيل ليس بها عقرب ولا شئ من الهوام .

بعد أن فرغ أبو عبيدة من فتح حصن حلب بعث جيشاً إلى عزاز وأمر عليها مالكا الأشتر النخعى ففتح المسلمون حصنها بلا عناء كبير بواسطة بطريق حلب الذى أسلم وحسن إسلامه ، قال الواقدى فى فتوح الشام أن اسمه يوقنا وكتب أبو عبيدة إلى عمر بفتح قلعة حلب وحصن عزاز وجاء فى فتوح الشام أن أهل عزاز أسلموا باسلام قسهم .

فتح المعرة وغيرها

مر أبو عبيدة بمعرة النعمان(١) فخرج أهلها يلعبون

(١) هى مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة ماؤها من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين ومنها كان أبو العلاء بن عبد الله بن سليمان المعرى القائل:

قبابرق ليس الكرخ دارى وإنما
رمانى إليها الدهـر منذ ليـال
فهل فيك من ماء المعرة قطـرة
تغيث بها ظمـآن ليـس بسـالى

بين يديه ثم أتى فامية[1] قلعة المضيق ففعل أهلها مثل ذلك . قال البلاذرى سار أبو عبيدة فى سنة ١٧ بعد افتتاح شيرز[2] إلى فامية فتلقاه أهلها بالصلح فصالحهم على الجزية والخراج ، أما أهل حماة وشيرز فقد أذعنوا وسار يزيد إلى صيد[3] وبيروت وجبيل[4] وعرقة[5] ففتحها فتحاً يسيراً وبعث يزيد دحية بن خليفة إلى تدمر[6] فى سرية ليمهدوا أمرها وبعث أبا الزهر القشيرى إلى البثنية[7]

(١) فامية مدينة من سواحل حمص .

(٢) شيرز ، قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم فى وسطها نهر الأردن وهى قديمة ذكرها امرؤ القيس فى قوله :

تقطع أسباب اللبـانة والهوى
عشية رحنا من حماة وشيرزا

(٣) مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق .

(٤) بلد فى شرقى بيروت .

(٥) بلدة فى شرقى طرابلس بينها وبين البحر نحو ميل .

(٦) مدينة فى برية الشام .

(٧) بلدة بالشام .

وحوران فصالح أهلها (١).

ووجه أبو عبيدة ميسرة بن مسروق العبسى إلى درب بغراس(٢) فلقى جمعاً من الروم ومعهم مستعربة من غسان وتنوخ يريدون اللحاق بهرقل فاوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وبلغ أبا عبيدة جمعاً من الروم بين معرة مصرين وحلب فلقيهم وقتل عدة بطارقة وفض ذلك الجيش وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب .

عام الرمادة

١٨ هـ - ٦٣٩ م

فى هذه السنة (١٨) أصاب الناس مجاعة شديدة وجدب وقحط واشتد الجوع حتى جعلت الوحش تأوى إلى الأنس وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وماتت المواشى جوعا وسمى هذا العام عام الرمادة لأن

---

(١) كورة واسمه من أعمال دمشق .

(٢) مدينة بالقرب من أنطاقية.

الريح كانت تسفى ترابا كالرمادة وأقسم عمر أن لا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما حتى يحيى الناس فقدمت السوق عُكة سمن[١] ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين درهما ثم أتى عمر فقال يا أمير المؤمنين قد أبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهما فقال عمر أغليت بهما فتصدق بها فأنى أكره آكل اسرافا ، وقال «كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يصيبنى ما أصابهم » وكتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأمر المدينة ومن حولها ويستمدهم فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من الطعام[٢] فولاه قسمتها فيمن حول المدينة فقسمها واصرف إلى عمله وتتابع الناس ووردت المؤن من العراق أيضاً وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل

---

(١) العكة أصغر من القربة .

(١) وفى كتاب الخلافة للأستاذ موير أنها كانت محملة بالقمح من الشام .

فيه الطعام من مصر فرخص السعر واستمرت هذه المجاعة تسعة أشهر .

(الاستسقاء)

وبعد تسعة أشهر من القحط خرج عمر ومعه العباس ماشيا فخطب وأوجز وصلى ثم جثا لركبيته وقال : «اللهم عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا حولنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا وأحى العباد والبلاد» .

وأخذ بيد العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأن دموع العباس لتتحادر على لحيته . فقال «اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك ﷺ وبقية آبائه وأكبر رجاله فإنك تقول وقولك الحق (إما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) فحفظتهما بصلاح آبائهما فاحفظ الله نبيك ﷺ فى عمه فقد دلونا به إليك مستشفعين مستغفرين» . ثم أقبل على الناس فقال : «استغفروا ربكم إنه كان غفاراً» .

وكان العباس قد طال عمره وعيناه تذرفان ولحيته تجول على صدره وهو يقول «اللهم أنت الراعى فلا تهمل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة فقد صرخ الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوى وأنت تعلم السر وأخفى . اللهم فاغنهم بغناك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» .

فنشأت طريرة من سحاب فقال الناس ترون ! ترون! ثم التأمت ومشت فيها ريح ثم هدأت ودرت فوالله ماتروحوا حتى اعتنقوا الجدار وقلصوا المآزر فطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون هنيئا لك ساقى الحرمين ، فقال الفضل بن العباس بن عتبة ابن أبى لهب:

بعمى سقى الله الحجاز وأهلـه

عشية يستسـقى بشيبتـه عـمر

توجه بالعباس فى الجدب راغبا

إليه فما أن رام حتى أتى المطر

ومنا رسول الله فيـــنا تراثـــه

فهل فوق هذا للمفاخـر مفتـخر

وقال حسان بن ثابت :

سأل الإمـــام وقد تتابع جدبنا

فسقى الغمـــام بغرة العبـاس

عم النبى وصنو والـــده الـذى

ورث النبــى بذاك دون النـــاس

أحيا الاله به البـلاد فأصبحت

مخضــرة الأجنـاب بعد الياس

طاعون عمواس

سنة ١٨ هـ - ٦٣٩م

عمواس رواه الزمخشرى بكسر أوله وسكون الثانى ورواه غيره بفتح أوله وثانيه وهى كورة من فلسطين

بالقرب من بيت المقدس . قال المهلبى كورة عمواس هى ضيعة جليلة على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس ومنها كان ابتداء الطاعون فى أيام عمر ابن خطاب رضى الله عنه ثم فشا فى أرض الشام فمات فيه خلق كثير لا يحصى من الصحابة رضى الله عنهم ومن غيرهم وذلك فى سنة ١٨ للهجرة ومات فيه من المشهورين أبو عبيدة بن الجراح وعمره ٥٨ سنة وهو أمير الشام ، ولما بلغت وفاته عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولى مكانه على الشام يزيد بن أبى سفيان ومعاذ بن جبل والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والفضل بن العباس وشرحبيل ابن حسنة . وقيل مات فيه ٢٥٠٠٠ من المسلمين وفى هذه السنة كان عام الرمادة بالمدينة (ياقوت).

لما فشا الطاعون وبلغ ذلك عمر كتب إلى أبى عبيدة ليستخرجه منه أن «سلام عليك ، أما بعد فإنه عرضت إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يد حتى تقبل إلى».

فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء إشفاقا عليه وضناً به فقال يغفر الله لأمير المؤمنين ثم كتب إليه :

«يا أمير المؤمنين إنى قد عرفت حاجتك إلى وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم أمره وقضاه فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى» .

فلما قرأ عمر الكتاب بكى ، فقال الناس يا أمير المؤمنين أمات أبو عبيدة؟ قال وكأن قد قال ثم كتب إليه .

«سلام عليك ، أما بعد فإنك أنزلت الناس ارضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة» فلما اتى كتابه دعا أبا موسى فقال يا أبا موسى أن كتاب أمير المؤمنين قد جاءنى بما ترى فاخرج فارتد للناس منزلا حتى أتيك بهم فرجع أبو موسى إلى منزله فوجد زوجته قد أصيبت فرجع إليه فأخبره الخبر فأمر ببعيره فرحل له فلما وضع

رجله فى غرزه طعن فقال : والله لقد أصبت . وقيل لما اشتعل قام أبو عبيدة فى الناس خطيباً فقال :

«أيها الناس إن هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم محمد ﷺ وموت الصالحين قبلكم وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه» فطعن فمات فاستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيبا بعده فقال :

«أما بعد أيها الناس إن هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم قبلكم وإن معاذا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظهم» فطعن ابنه عبد الرحمن بن معاذ فمات ، ثم قام فدعا به لنفسه فطعن فى راحته فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام فى الناس خطيباً فقال :

«أيها الناس . إن هذاالوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه فى الجبال» ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا(١) ورفعه الله عنهم .

(١) ذكر مستر هوير إنهم تفرقوا إلى حوران .

هذا ما جاء فى الطبرى ، وفى أسد الغابة : لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل ، ومات معاذ فاستخلف يزيد ، ومات يزيد فاستخلف أخاه معاوية. وقد مكث هذا الطاعون شهراً .

الفهرس

الفهرس